منهج تعامل السنّة مع المخطئين وحديثى العهد بالإسلام بين التعليم وعدم الإحراج

عبدالكريم توري

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد لله وكفى، والصَّلاة والسَّلام على رسوله المصطفى محمَّد بن عبد الله سيّد الخلق أجمعين، وعلى آله الطيّبين الطّاهرين وصحابته الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين. وبعد:

صنَّف الله تعالى البشر في القرآن الكريم إلى صِنفين اثنين كافر ومؤمن، قال الله تعالى:

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾. التغابن: 2.

وصنَّف المؤمنين حسب قوة تمسُّكهم بكتاب الله تعالى إلى ثلاث أصناف، فقال عزّ من قائل:

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ... ﴾. فاطر:32.

وصنَّف الكافرين إلى صنفين هما أهل الكتاب – مِن اليهود والنَّصارى – والمشركون، فقال تعالى:

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ ... ﴾. البيّنة 1.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ... ﴾. البيّنة 6.

كيف تعاملت السنَّة النبوية عند ذكر أخطاء الصّحابة؟ فهم وإن كانوا مؤمنين إلا أنَّهم ليسوا معصومين، فقد كانوا يقعون في الأخطاء في أوقات الضَّعف البشري.

كيف كانت السنَّة النبوية تتعامل معهم وتنبّههم على أخطائهم؟ هل كان بالتلميح أو بالتَّصريح بأسمائهم؟ ؟

هذا ما سوف تحاول الدراسة الإجابة عليها النقاط التالية:

منهج السنة النبوية في التعامل مع المذنبين بذكر أخطائهم لا أسمائهم

منهج السنَّة النبوية في ذكر أسماء المخطئين والمذنبين يتباين عن منهج القرآن الكريم في بعض شيء كما سيتَّضح ذلك في السطور التالية.

ذكر لنا القرآن الكريم أسماء مجرمين الطغاة كانوا يمثّلون تاريخ لمرحلة طويلة من تاريخ البشرية، بدأ من تاريخ الإنسان الأوَّل أبو البشر آدم عليه السلام حيث بدأ الصِّراع في السَّماء قبل الأرض بين الحق والباطل،الصِّراع بين آدم عليه السلام وإبليس، فضعُفآدم عليه السلام في الجولة الأولى لهذا الصِّراع ولكنَّه تاب فتاب الله عليه.

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى فَقُلْنَا يَاآدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَاآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾. طه: 115 – 122.

ثم واصل آدم عليه السلام هذا الصِّراع مع إبليس على الأرض ووعد من الله تعالى أن يعينه وبنيه في صراعهم هذا مع إبليس ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾. طه: 123 – 124. ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾.

يس: 60.

ولكن كثير من بني آدم بعد هبوط آدم عليه السلام طغوا وتجبَّروا وأشركوا بالله مالم ينزِّل به سلطاناً، فمنهم من ادَّعى الألوهية، وكان مِن أشدَّهم طغياناً وتجبُّراً بعض الذين ذكر الله لنا أسمائهم في القرآن ليكونوا رمزاً للجبروت والطُّغيان بني آدم،بدأً بفرعون ومنتهياً بأبي لهب الذين كانوا يمثِّلون الرَّدم المنيع لرسالة الأنبياء في بعض هذه الفترة المترامية الأطراف.

ولما كانت مكة هي قلعة الشرك والرَّدم المنيع لنشر رسالة التوحيد إلى العالمين في المرحلة الأولى من النبوة نزلت فيها قصص القرآن كلّها بذكر اسم هؤلاء الطّواغيت وغيرهم – ما خلا قصَّة آدم عليه السلام فإنَّها نزلت بمكة والمدينة في سورة البقرة– فقرآن المرحلة المكية ركَّز فقط على التَّوحيد دون الأحكام التي نزلت لاحقاً بالمدينة المنورة. هذا هو سر ذكر القرآن الكريم أسماء بعض الجبابرة ليمثَّلوا الطّغيان البشري في كل زمان ومكان.

أمّا الحديث النبوي،فالأحاديث المدوَّنة في الكتب التي وصلتنا، المدنيَّة منها أكثر من المكيَّة، ذلك أنَّ أكثر الصَّحابة رضي الله عنهم روايةً للأحاديث – وهم سبعة – أبو هريرة، ابن عمر، أنس، أم المؤمنين بنت الصِّديق عائشة، ابن عباس، جابر بن عبد الله، أبو سعيد الخدري رضي الله عنهم. إنَّما تحمّلوها عنه ﷺ بالمدينة وإن كان فيهم بعض المهاجرين. ولستُ أعني بهذا أنَّ ما تكلَّم به النَّبي ﷺ في الفترة المكيَّة أقل ممَّا تكلَّم به في الفترة المدنيَّة،فقد أقام بمكة ثلاثة عشر عاماً والمدينة عشرة عامٍ ويقتضي ذلك منطقيًّا أن يكون ما تكلَّم به بمكة أكثر منه مما تكلَّم به بالمدينة، إلا أنَّ ظروف الفترتين اختلفت – أمنيًّا وعدد الصَّحابة رضي الله عنهم مما جعل ما وصلتنا من أحاديثه ﷺ في الفترة المدنيَّة أكثر مِن الأحاديث في الفترة المكيَّة[23].

فبعد هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة، اختلفت نوعية الصِّراع بين الحق والباطل، فبعد أن كان بين طرفين اثنين، بين الوثنية المتمثلة في غطرسة قريش، صار بالمدينة بين ثلاثة أطراف المتمثِّلة في التوحيد والمنافقين وأهل الكتاب من اليهود.

[23] توري، عبد الكريم. 1432هـ 2011م. الحديث المكي والمدني معالم وضوابط. ماليزيا: جامعة العلوم الإسلامية. ص 37.

وكان طرف الموحِّدين هو الطَّرف الأكثر والأقوى بالمدينة خلاف ما كان عليه بمكة حيث كانوا القلة والضعفاء، وكان الصِّراع في مكة صراع بدني جسمي وجه لوجه، وهو صراع الأقوياء، أمّا بالمدينة فكان صراع مِن نوعٍ آخر،أي صراع مع المنافقين ودسيسة اليهود[24]، وهذان سلاحين سلاح الضُّعفاء والحبناء.

كان رسول الله ﷺ مشغول بتوطيد أركان الدولة الناشئة وإصلاح شؤون المؤمنين وخاصة المهاجرين ، ولذلك نلحظ كثيراً في أحاديثه ﷺ المدنيَّة الخطاب موجَّه فيها في الغالب إلى الصَّحابة ﷺ المقيمين معه ﷺ بالمدينة المنوَّرة، وأعرابهم خارج المدينة المنورة، أمّا المشركين أو اليهود أو المنافقين، وإن كان هناك بعض أحاديثه ﷺ موجَّهة إليهم إلا أنَّها قليلة.

فالمرحلة المدنية كانت مرحلة بناء وتعليم وإرشاد وتوجيه، والصَّحابة ﷺ كانوا في أمس الحاجة إلى ذلك لأنّهم كانوا في فترة انتقالية مِن الجاهلية إلى الإسلام. وقد وجدوا في شخص رسول الله ﷺ خير معلِّم ومرشد وموجِّه في صبره ورفقه بهم في زلاتهم بشهادة العلي القدير حيث يقول تعالى:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ...﴾ . آل عمران:159.

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾. التوبة: 29.

فقد كان خير معلِّم ومرشد، كان أسلوبه ﷺ حين يرى مِن أحد مِن الصَّحابة ﷺ ما لا ينبغي هو الإشهار بالخطأ لا بالمخطئ،التلميح دون التصريح،وتوجيه النقد إلى ذات الخطأ لا إلى صاحبه إلا ما ندر حيث كان يُصرِّح بالاسم إذا اقتضى الأمر ذلك. هذا ما سوف نتطرَّق له بالأمثلة في السُّطور التالية والله المستعان وعليه التُكلان.

أولاً: تمييز رسول الله بين الصَّحابة ﷺ في ذكر وتصحيح أخطائهم

القرآن الكريم لم يكن يتعامل مع الصَّحابة ﷺ في تفاصيل ودقائق أمورهم، وكان لا ينزل إلا لعِظام الأمور. أمّا رسول الله ﷺ فإنَّه ﷺ كان يعيش مع الصَّحابة ﷺ، وكان يتعامل معهم في تفاصيل ودقائق أمورهم الدينية والاجتماعية، فمراعات الفروق الفردية بينهم في العلم والإيمان والطَّبع في مثل هذا الوضع ضروري ليستوعب كلٌّ منهم حسب علمه وإيمانه وطبعه تعليمات الشرع، فكان ﷺ يقبل مِن بعض الأعراب الجفوة والقسوة في التعامل إذ كان ذلك طبعهم.

كان يقبل من بعضهم بعض التَّصرفات غير اللاحقة ويصححها باللطف والرَّحمة، وفي المقابل كان يغلظ القول على بعض كبار الصَّحابة ﷺ حين يقعون في بعض ما يُعاتَبون عليه من الأمور التي ما كان ينبغي أن تقع منهم. وإليكم بعض النَّماذج.

[24] انظر سبب نزول قوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾. آل عمران: 100.

1- معاذ بن جبل ﷺ الأنصاري الخزرجي الإمام المقدّم في علم الحلال والحرام، ففي الحديث "...وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ[25]...".

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ وَقَالَ: يَا مُعَاذُ! وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ...الحديث[26]" وقال ﷺ "خذوا القرآن مِن أربعة: مِن ابن أم عبد - فبدأ به — ومعاذ بن جبل، وأُبي بن كعب، وسالم مولى أبي حذيفة[27]" ومع هذا كلّه فحين أخطأ معاذ ﷺ في أمر ما كان ينبغي لمثله أن يُخطئ فيه، ذكر اسمه وأغلظ له القول.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا :أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ ﷺ كَانَ يُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ يَأْتِي فيؤم قَوْمَهُ، فصلىَّ ليلة مع النَّبي ﷺ العشاء. ثم أتى قومه فأمَّهم. فافتتح بسورة الْبَقَرَةَ، فانحرف رجل فسلَّم، ثم صلَّى وحده وانصرف. فقالوا له: أنافقت يا فلان، قال: لا والله، ولآتينَّ رسول الله ﷺ فلأخبرنَّه. فأتى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله، إنّا أصحاب نواضح، نعمل بالنَّهار، وإنَّ معاذاً صلَّى معك العشاء، ثم أتى فافتتح بسورة البقرة. فأقبل رسول الله ﷺ على معاذ فقال: يا معاذ أفتّان أنت؟ اقرأ بكذا واقرأ بكذا وفي رواية قال: اقرأ: والشَّمس وضحاها، والضُّحى والليل إذا يغشى، وسبّح اسم ربّك الأعلى[28]. وفي رواية للبخاري قال ﷺ: يا معاذ أفتّان أنت؟ قالها ثلاثاً، اقرأ "والشمس وضحاها"، و"سبّح اسم الأعلى[29]".

فرسول الله ﷺ ذكر اسم معاذ ﷺ وأغلظ عليه القول "يا معاذ أفتّان أنت؟" ولعل ذلك لمكانة معاذ ﷺ في العلم والإيمان،وما مثله كان ينبغي أن يخفى عليه هذا. ألا ترى أنَّ الله تعالى خصَّ أمهات المؤمنين دون سائر النِّساء في مضاعفة العقاب إن هنَّ أتين بفاحشة مبيّنة وذلك لمكانتهنَّ من رسول الله ﷺ فقال تعالى:

﴿ يَانِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾. الأحزاب: 30. وإن كان هذا شرط والشَّرط لا يقتضي الوقوع.

2- عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ﷺ أنَّ أبا هريرة ﷺ قال: قام أعرابي فبال في المسجد فتناوله الناس، فقال لهم النَّبي ﷺ "دعوه وهريقوا على بوله سَجْلاً مِنْ ماء أو ذَنوباً مِنْ ماء، فإنَّما بُعثتم مُيسَّرين ولم تُبعثوا معسَّرين"[30].

3- عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ قَالَ: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَا ثُكْلَ أُمِّيَاهْ، مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا

[25] سنن الترمذي الحديث رقم 3799.

[26] رواه أبو داود 1522.

[27] صحيح مسلم، الحديث رقم 2464.

[28] صحيح مسلم، كتاب الصَّلاة، باب القراءة في العشاء، الحديث رقم 465.

[29] البخاري، الصحيح. كتاب الأذان، الحديث رقم 704. وكتاب الأدب الحديث رقم 6106.

[30] البخاري، الصحيح. كتاب الوضوء باب صب الماء على البول في المسجد، الحديث رقم 220 وكتاب الأدب، الحديث رقم 6128.

رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي، لَكِنِّي سَكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ، وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللَّهِ مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ: "إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ، لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ" ، أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ، وَقَدْ جَاءَ اللَّهُ بِالإِسْلَامِ... [31].

انظر كيف تعامل ﷺ مع من دون معاذ ﷺ في العلم والإيمان وإن كان الخطأ ليس هو نفسه، فهو ﷺ لم يعنف بهذا الأعرابي وبمعاوية بن الحكم السَّلمي رضي الله عنهما لأنَّه يعلم طبعهم وحداثة عهدهم بالإسلام فعذرهما ورفق بهما.

كان ﷺ في الغالب لا يواجه الصَّحابة ﷺ بأخطائهم بل يلمح بها لهم والمخطئ منهم ﷺ، فالغرض في هذا هو إمرار الرِّسالة والتعليم والإشهار بالخطأ لا بالمخطئ والتلميح دون التصريح وتوجيه النقد إلى ذات الخطأ لا إلى صاحب الخطأ. وبهذا الأسلوب نفذ ﷺ إلى قلوب الصَّحابة ﷺ، فنعم المربِّي والمرشد كان هو ﷺ. وها هنا بعض النَّماذج من تصحيحاته بالتلميح لبعض الأخطاء لبعض الصَّحابة ﷺ.

عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: صنع النَّبي ﷺ شيئاً فرخص فيه فتنزه عنه قوم فبلغ ذلك النَّبي ﷺ فخطب فحمد الله ثم قال ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه فوالله إنيّ لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية[32].

عن أبي حميد الساعدي ﷺ قال استعمل النَّبي ﷺ رجلاً من بني أسد يقال له ابن الأتبية على صدقة فلما قدم قال هذا لكم وهذا أهدي لي فقام النبي ﷺ على المنبر قال سفيان أيضاً فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ما بال العامل نبعثه فيأتي يقول هذا لك وهذا لي فهلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى له أم لا، والذي نفسي بيده لا يأتي بشيء إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته إن كان بعيراً له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطيه ألا هل بلغت ثلاثا[33].

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم

2. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل. 1413هـ/ 1993م.تفسير القرآن العظيم. المدينة المنورة: مكتبة دار العلوم والحكم.

3. البخاري، محمَّد بن إسماعيل. 1422هـ/ 2002م. الجامع المسند الصَّحيح المختصر من أمور رسول

[31] صحيح مسلم، كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصَّلاة، ونسخ ما كان من إباحته. الحديث رقم 537.

[32] البخاري، الصحيح. كتاب الأدب. باب من لم يُواجه الناس بالعتاب. الحديث رقم 6101. والحديث رقم7302.

[33] البخاري، الصحيح. كتاب الأحكام. الحديث رقم 7191.

الله ﷺ وسننه وأيَّامه. الطَّبعة الأولى. القاهرة: مكتبة الصَّفا.

4. مسلم، بن الحجاج. 1420هـ/ 2000م. صحيح مسلم. ط 1. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

5. القرطبي، محمَّد بن أحمد الأنصاري. 1419هـ/ 1999م. الجامع لأحكام القرآن. ط 1. بيروت: دار الفكر.

6. المباركفوري، صفي الرحمن. 1426هـ/ 2005م. الرحيق المختوم. ط17. المصورة: دار الوفاء.

7. الترمذي، 1421هـ/ 2000م. الجامع الصحيح سنن الترمذي. ط 1. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

8. العسقلاني، ابن حجر. 1415هـ/ 1995م. الإصابة في تمييز الصَّحابة. بيروت: دار الكتب العلمية.

9. توري، عبد الكريم. 1432هـ 2011م. الحديث المكي والمدني معالم وضوابط. ماليزيا: جامعة العلوم الإسلامية.

10. الصّابوني، محمَّد علي. د.ت صفوة التفاسير. القاهرة: دار الصّابون